مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 11 / العـدد:01 (جانفي 2023) ص 475– 488
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

التواصل العلمي بين حاضرة توات والحواضر الجزائرية من القرن 10-13هـ/ 16-19م

The Scientific Communication BetweenTouat and Other Algerian Cities During the 10th-13th Centuries/ 16-19 AD

الدكتور: عبد الله بابا
BABA Abdellah
جامعة أدرار (الجزائر)، abd.baba@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/02	تاريخ القبول: 2022/08/01	تاريخ النشر: 2023/01/22

الملخص: امتازت توات بموقعها الاستراتيجي المتمركز على الطريق الصحراوي الرابط بين حواضر بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، ونظراً لأهميتها الاقتصادية والسياسية فقد شهدت نمواً عمرانياً واستقراراً لشعوب وقبائل من مختلف الحواضر الشمالية والجنوبية، كما استقر بها علماء وفقهاء كان لهم الدور الأبرز في ربط توات علمياً بمختلف الحواضر القريبة منها في بلاد السودان والمغرب الأقصى والجزائر.

تعد كل من تلمسان والجزائر العاصمة وتقرت وبني عباس من بين أهم الحواضر التي كانت محل استقطاب لطلبة توات في رحلتهم العلمية خارج توات، غير أن بعض الرحلات العلمية تكللت بجلوس بعضهم للتدريس والإفتاء أو تأسيس الزوايا ببعض الحواضر الجزائرية، وهناك من العلماء من شارك في صناعة أحداث تاريخية مفصلية كتحرير مدينة وهران الأول سنة 1708م، أو الوقوف كشاهد عيان على أحداث تاريخية هامة في أواخر العهد العثماني، كحملة اللورد إكسموث على الجزائر 1816م، مدوناً لكل تفاصيلها ومسجلاً لإحصائيات حربية دقيقة.

الكلمات المفتاحية: توات؛ الجزائر؛ تلمسان؛ تقرت؛ بني عباس؛ العلماء؛ الرحلة؛ الإجازة؛ المصنفات؛ الزوايا.

Abstract: The Touat has its strategic location in the middle of the desert highway that connects Urban Maghreb to Sub-Saharan Africa. Because of its economic and political importance, it witnessed urban growth and stability of peoples and tribes from different northern as well as southern cities; it was settled by scholars and jurists. They played the most prominent role in making Touat connected to various cities nearby Sudan, Morocco, and Algeria.

Tlemcen, Algiers, Touggourt and Bani Abbas are among the most important cities that have attracted students in their scientifically journey outside Touat. Some of them, however, stayed to teach, to issue fetwa or to establish Quanic schools in some Algerian cities. There are Islamic Scholars who got involved in historical events such as the liberation of the city of Oran in 1708, or standing as an eyewitness to important historical events in the late Ottoman period, such as Lord Exmuth's campaign against Algeria in 1816. They were writing all its details and recording accurate statistics of the wars.

Keywords:Touat, Algeria, Tlemcen, Touggourt, Bani Abbas, Scientists, The journey, degree, Literature, alzawaya.

1. مقدمة

تعد منطقة توات من الحواضر الصحراوية التي ساهمت بدورٍ فعال في مد جسور الحضارة بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان، كما لعبت عبر تاريخها الطويل في الإبقاء على هذه الجسور متصلة بربطها ببعدها الحضاري الفكري، فلم تكن توات يوما منغلقة على نفسها مستكفية بما وصلت إليه من ازدهار اقتصادي وعلمي، بل كانت منفتحة على مختلف الثقافات والأفكار، وإذا كانت البداية مع توطن ثلة من علماء الجزائر بها كالمنياري، والتدلسي، والمغيلي، والعصنوني، ومساهمتهم في تفعيل الحياة العلمية الفكرية، فإن طلبة توات وعلماؤها شدوا الرحال إلى الحواضر الجزائرية لطلب العلم والحصول على الإجازات، كالتمنطيطي"عالم توات"، والزجلاوي، والبكري، والتنلاني، مما أثمر–بعد عودتهم– عن حركية علمية تمظهرت في انتقال مصنفات علماء حواضر الجزائر إلى توات والعكس، للتدراس والتباحث حولها وفي أحيان أخرى تدوين شروحات عليها، مما يدل على وحدة الفكر والمذهب الفقهي بين الحواضر الجزائرية.

وتحاول هذه الدراسة الوقوف على أهم نقاط التواصل بين توات والحواضر الجزائر من أجل ربط توات ببعدها الحضاري التاريخي، وذلك بتسليط الضوء على الرابطة والعلاقة العلمية بين مختلف الحواضر الجزائرية خلال الفترة الحديثة وخاصة توات. ويقودنا موضوع الدراسة إلى صياغة الإشكالية التالية: ما هي الأسس التي جسدت التواصل العلمي بين توات والحواضر الجزائرية؟ ولتوضح الإشكالية يمكننا طرح التساؤلات الآتية: ما مظاهر التواصل بين توات والحواضر الجزائرية؟ ما هي أهم مصنفات علماء الجزائر المتداول في مدارس توات؟ وما هي أهم المدن التي رحل إليها طلبة وعلماء توات؟ وللإجابة على الإشكالية اعتمدنا على المنهج التاريخي، الذي تفرضه علينا طبيعة المادة المدروسة قصد تتبعها زمنياً ووضعها ضمن سياقتها التاريخية.

2. حاضرة توات: برز مصطلح "توات" كمفهوم جغرافي لمنطقة محددة ضمن الصحراء الكبرى في كتابات الرحالة والمؤرخين كابن بطوطة وعبد الرحمن السعدي، غير أنه تبرز معنا صعوبات واضحة في محاولة تحديد ماهية المصطلح اللغوية والاصطلاحية، حيث تعددت الروايات في أصل الكلمة ومعناها، بين روايات محلية وأخرى لمؤرخين غربيين، كما أقدم بعضهم على البحث في الأصل اللغوي للاسم في حين ذهب البعض الآخر إلى تفسير التسمية تفسيراً تاريخياً، ومثلما اختُلف في تحديد مفهوم التسمية وضبط مصدرها، فإن هذا الاختلاف انتقل أيضاً إلى التحديد الجغرافي الذي يأخذ اتجاهين أساسيين، حيث يرى أصحاب الاتجاه الأول أن توات تمتد من مقاطعة تسابيت شمالاً إلى مقاطعة رڤان جنوباً، ويدعم هذا الاتجاه السّرج المغربي في رحلته الحجية 1630–1633م، ثم جاء بعده العياشي في رحلته ما بين 1661–1663م، ويدعم هذه الرأي جماعة من مؤرخي توات وعلى رأسهم

محمد بن عمر الجعفري البوداوي (ت1329هـ/1911م). أما أصحاب الاتجاه الثاني فينظرون أن توات الكبرى تمتد من تبلكوزة شمالاً إلى فقارة الزوى في الجنوب الشرقي، وتشمل المناطق الثلاثة قورارة، توات الوسطى، تيدكلت المحاذية لواد مسعود، ويدعم هذا الاتجاه القاضي والمؤرخ محمد بن عبد الكريم البكري(ت1955م)، وأيضاً الشيخ محمد العالم بكراوي في مخطوطه الدرة البهية يدعم رأي القاضي البكري؛ من أن توات تمتد لتشمل المناطق الثلاثة. (بعثمان، 2015–2016، الصفحات 46–54).

ابتدأت توات في التشكل كحاضرة علمية بداية من القرن التاسع إلى الحادي عشر الهجريين وذلك بتوافد العلماء عليها، واستكمال عمارتها، وشكلت هذه المرحلة مرحلة التأسيس، ثم تلتها مرحلة القوة والازدهار والتي كانت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، وشهدت خلالهما بروز علماء من أبناء توات حصّلوا الإجازات العلمية وجلسوا للتعليم والإفتاء والقضاء ونشر المذهب المالكي، كما كانت لهم علاقات علمية ومراسلات مع علماء الحواضر القريبة منها. (قزان، 2010–2011، الصفحات 21–22)

3. تَوطُّن علماء الحواضر الجزائرية بتوات: حل بتوات العديد من علماء وفقهاء الحواضر العلمية الجزائرية، الذين كان لهم دورا هاما في بعث الحياة العلمية بالمنطقة، منهم:

1.3 أبو يحي محمد بن محمد المنياري:

حلّ الفقيه أبو يحي محمد المنياري بتوات سنة 815هـ/1412م قادماً من الجنوب الوهراني(سعيدة)، ونظراً لمكانته العلمية فقد اتفقت الجماعة التواتية على توليته منصب القضاء، ليسود فيها بالعدل والإصلاح، وكانت مؤونته 50 مثقالا من الذهب في السنة، ومما يشهد له به أنه عمل على ضبط الأحكام الشرعية، كماأدخل المكاييل والموازين في البيع والشراء، وقد استمر بهذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 840هـ/1436م، ومما يذكر عنه أنه أسس زاوية بتجعفرت غرب حاضرة تمنطيط، قامت بدورٍ هامٍ داخل تمنطيط وخاجها. (ابن بابا حيدة، 1977، صفحة 30)

2.3 أبو زكريا يحي بن يدير بن عتيق التدلسي التلمساني:

من كبار فقهاء المالكية، استقر بتوات وتقلد بها خطة القضاء سنة 845هـ/1441م، بقي بهذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 877هـ/1472م، أخذ العلم عن ابن زاغو، وأبي عبد الله بن العباس التلمساني، ومحمد بن أحمد بن العقباني، وأخذ عنه الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي والقاضي العصنوني بتمنطيط، توفي في 10صفر 877هـ/16جوان 1472م. (التمبكتي، 1989، صفحة 637) (ابن القاضي، 1970، صفحة ج3، 336).

3.3 القاضي عبد الله العصنوني:

قدم الإمام عبد الله بن أبي بكر العصنوني مع أخوه محمد بصحبة جدهما عثمان بن أبي بكر من تلمسان إلى توات سنة 862هـ/1458م، بعدما أخذ العلم عن جماعة من العقبانيين بتلمسان وعن أحمد بن زكريا المغراوي، حيث استقر أول الأمر في قصر بني تامر ثم انتقل إلى تمنطيط، تولى قضاء الجماعة التواتية بعد وفاة شيخه القاضي يحي بن يدير التدلسي سنة 877هـ/1473م، اشتهر باختلافه الفقهي مع الإمام المغيلي في قضية نازلة يهود توات، استعفى من هذا المنصب سنة 914هـ/1509م، وحل مكانه ابن أخيه الشيخ سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني، والذي يذكر عنه أنه أوقف رجلين في مجلسه القضائي يتلوان عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر، الآية29) وذلك عندما يريد أن يفصل بين الخصمين، وكان له ولد اسمه أحمد بن سالم تولى القضاء بمصر (ابن بابا حيدة، 1977، صفحة 20، 30).

4.3 الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي: حل الإمام المغيلي لأول مرة بتمنطيط في حياة شيخه يحي بن يدير التدلسي، حيث أخذ عنه علماً كثيراً، ثم رجع مرة ثانية إلى تمنطيط سنة 882هـ/1478م بعد وفاة شيخه، ونزل بأولاد يعقوب، لكن لم تذكر المصادر سبب قدومه، غير أنه وجد توات مهملة غير خاضعة لأي سلطان، وكان هذا في آخر عهد الدولة المرينية، تُسيّر شؤونها من طرف شيوخ القبائل والقصور، كما وجد زعيم قبيلة أولاد علي بن موسى عمرو بن عبد الرحمن رئيساً لمجموعة قبائل تمنطيط والإقليم التواتي، أما قضاء الجماعة التواتية فكان بيد القاضي عبد الله العصنوني، وفي نفس الوقت وَجَدَ اليهود متحكمون في الحياة التجارية للمنطقة، وبعد خلاف وقع بينه وبين يهود تمنطيط قام المغيلي بإجلائهم من توات سنة 882هـ/1478م، كما سيطر على كامل إقليم توات ونصب ابنه عبد الجبار قائداً لجيشه، وسحب جميع السلطات التي كانت بيد شيوخ القبائل، ووضعها في يد شخص واحد، وحوَّل العاصمة من تمنطيط إلى قصر بوعلي. (الحمدي، 1999–2000، الصفحات 54–55) (Martin, 1908, p. 128)

هذه الخطوة أدت إلى استقلال توات بشؤونها زمن الإمام المغيلي ولم تخضع لأية دولة أخرى، وبعدما نظم الحياة السياسية بتوات سافر الإمام المغيلي إلى بلاد السودان لمواصلة رسالته الدعوية، لكنه عاد إليها بعد مقتل ابنه عبد الجبار سنة 890هـ/1485م من طرف اليهود مجهزاً جيشاً لقتالهم، لكنه فشل في الانتصار عليهم لاستقوائهم بقبيلة أولاد علي بن موسى وزعيمها عمرو بن عبد الرحمن، وعلى إثرها رجع الإمام المغيلي إلى قصر بوعلي واستقر هناك إلى أن أدركته المنية سنة 909هـ/1504م (البكري، د.س، صفحة 4).

4. المراسلات والمناظرات:

1.4 نازلة يهود توات: نتيجة لغياب سلطة زمنية في إقليم توات في نهاية القرن 9هـ/15م عاد الحكم فيها لشيوخ القبائل والقصور، ومع قيام اليهود ببناء معبد جديد لهم بتمنطيط اعتبر الإمام المغيلي هذا الأمر تجاوزاً لتعاليم الإسلام وتحديا للمسلمين، ونتيجة كشفه ليهودياً من المهاجرية –كان يدعي الإسلام– يؤم الناس في بعض مساجد تمنطيط، مع قيامه برش المسلمين والمسجد بالبول في صلاة الفجر، وبعد فضح فعلته من قبل المغيلي هرب اليهودي وتبعه الإمام إلى منطقة لقرارة من أرض أسبع[4] فقتله هناك، فهرعت اليهود إلى الشيوخ الذين كانوا يهادنوهم ويلزمونهم المغارم، فقام الشيوخ برفع الأمر إلى قاضي الجماعة بتمنطيط الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني الذي عارض المغيلي في فكرة إخراج اليهود وهدم كنائسهم، وهو ما أدى إلى خروج القضية من إطارها المحلي إلى الإقليمي وذلك بمراسلتهما لعلماء تلمسان وفاس للفصل في القضية. (البكري(درة الأقلام)، د.س، صفحة 105)(بوعبدللي، 2011، الصفحات 18- 19)(الونشريسي، 1981، الصفحات ج3/ 214-219)

جاءت ردود العلماء متباينة حول نازلة يهود تمنطيط. وكان ممن وافق من العلماء والفقهاء رأي القاضي العصنوني:

- **ابن زكري التلمساني:** الذي رأى بأن المحققين في المذهب المالكي لا يرون هدم الكنائس، ويستشهد برأي ابن القاسم الذي لا يقر بالكنائس، إلا إذا كانت داخلة في شروط عقد الذمة.(الحمدي، 2012، صفحة 114)

- **أبي زكرياء بن أبي البركات:** الذي رأى بأن الكنائس لا تهدم"لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح" وقد بنى فتواه على شروط تغيير المنكر، ورأى بأن هذه النازلة ستؤدي إلى فتنة، لذلك كان رأيه يصب في صالح درء المفاسد أولى من جلب المصالح. (الحمدي، 2012، صفحة 115).

أما من وافق المغيلي في وجوب هدم كنائس اليهود من العلماء هم:

- **الشيخ إبراهيم الفيجيج والإمام مهدي عيسى بن أحمد الماواسي**

- **محمد بن عبد الله التنسي التلمساني:** قال بعدم جواز السماح لليهود بإقامة متعبد لهم بتوات، لأنها أرض اختطها المسلمون. (الونشريسي، 1981، صفحة 225/2).

- **الإمام محمد السنوسي:** جاء جوابه موافقا للمغيلي بجوب هدم الكنائس إظهارا لشرف الإسلام. (الحمدي، 2012، الصفحات 123-124).

- **أحمد بن يحي الونشريسي:** أقر باتفاق علماء المذاهب على منع إحداث كنائس في بلاد المسلمين. (الونشريسي، 1981، الصفحات 232/2-250).

5. الرحلات العلمية:

1.5 رحلة عالم توات إلى حاضرتي قورارة وبني عباس: ذكر الشيخ عبد الكريم بن أمحمد التمنطيطي في كتابه الرحلة في طلب العلم أن أول أشياخه هو والده أمحمد بن أبي محمد، وكانت أول فائدة استفادها هي: " لم حرف جزم"، كما حفظ على يده جزءاً من القرآن، إلى غاية سورة الأعراف، ومتن الخراز، ثم انتقل إلى خارج إقليم توات في رحلة علمية داخل وخارج الوطن، غير أن مسار الرحلة لم يحدده في رحلته، لكنه ذكر معظم أشياخه الذين أخذ عنهم العلم من خارج توات، ومنهم (التمنطيطي، 2009، صفحة 48/2):

2.5 الشيخ عبد الحكم بن عبد الكريم الجراري[5]: أخذ عنه العلم سنة 1010هـ/1602م، وكان من جملة ما أخذ عنه الأجرومية، وألفية ابن مالك في النحو ومختصر خليل وشرح البخاري (التمنطيطي، 2009، صفحة 72/2).

3.5الشيخ أحمد بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي[6]: التقى به سنة 1013هـ/1605م في مدينة بني عباس، أخذ عنه النصف الأخير من ابن التلمساني في الفرائض، ويبدو أن الشيخ عبد الكريم بن أمحمد توجه إليه مهنئا بعد دخول ابن أبي محلي لمراكش، وأهدى هذا الأخير للشيخ عبد الكريم ديوانه الشعري. (التمنطيطي، 2009، الصفحات 114-115) (بكري، 2010، صفحة 122).

4.5 الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري[7]: التقاه ببني عباس من واد الساورة، وابتدأ عليه قراءة ألفية ابن مالك في 03 صفر 1017هـ/19ماي1608م، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكان مما قال له عند لقائه الأول به " لا أدخر عنك ما في الصدور ولا ما في السطور، فمتى أردت شيئا من كتبي نخرجه لك تطالع فيه "ويبدو أن الشيخ عبد الكريم بن أمحمد، لم يكن راضياً عن الكتب التي كان يدرس منها الشيخ قدورة الجزائري، حيث جاء في الرحلة "رأيته يقتصر على القلشاني وابن ناجي وسيدي يوسف بن عمر، فوقف خاطري، فكأنه تفرس ما حاك بخاطري، فقال لي حين فرغ من الدرس: يا فلان هذا نحن اشتري ما رأيت، اتفق أهل الفنون أنه لا يترك المحقق للمظنون، وذلك أن قراءتنا هذه محققة أنك تصيبها، وقراءة تلمسان قيل تصيبها وقيل تشتغل عنها"، فتراجع عبد الكريم عن فكرة التوجه إلى تلمسان فلازم الشيخ سعيد قدورة الجزائري وأخذ عنه علماً واسعاً. (التمنطيطي، 2009، الصفحات 96/2-106).

كلفه شيخه سعيد قدورة باختصار كتاب العيون الغامزة على خفايا الرامزة على الخزرجية في العروض من وضع الدماميني، وبعدما انتهى منه كتب في نهايته أبياتاً جاء فيها:

يا قارئا هذا المفيد جد على واش الحروف بدعوة بالمغفرة

عبد الكريم سماه نجل محمد يرجو الكريم بفضله أن يستره

فكتب تحت هذه الأبيات الشيخ سعيد قدور بيتا جاء فيه:

يا رب فضلك واسع فاغفر له ثم اجزه عنا بما قد سطره

وسمى هذا المختصر باسم النشر الداريني في اختصار الدماميني

يعود الفضل في توجه الشيخ عبد الكريم بن أمحمد إلى حاضرة بني عباس لطلب العلم إلى الشيخ الحسن بن أحمد بن أبي يحي الشريف، الذي التقاه بزاوية الشيخ عبد الحكم بن عبد الكريم الجراري، وعرض عليه التوجه إلى الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري الذي كان آنذاك مقيماً بحاضرة بني عباس من واد الساورة، وفي هذا يقول الشيخ عبد الكريم بن أمحمد في رحلته: "وبالجملة فجميع ما أنا فيه من الخير والبركة... فهو من بركة السيد الحسن المذكور". (التمنطيطي، 2009، صفحة 94).

5.5 رحلة الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم التمنطيطي إلى الجزائر العاصمة: لم تشر المصادر البكرية التي وقفنا عليها إلى تاريخ معين لخروج سيد البكري من تمنطيط، لكن الذي أشارت إليه هو سبب انتقاله لطلب العلم، الذي يرجع للشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري عندما بعث برسالة يطلب من خلالها مجيء أحد أبناء تلميذه عبد الكريم بن أمحمد، ومن بين ما تضمنت الرسالة قوله: "إن البحر قد فاض من أراد أن يغترف فليحضر لدينا"، فتوجه إليه الابن الأصغر سيد البكري مع صديقه الصوفي سيدي ناجم[8]، وبعد وصولهما إلى مدينة الجزائر العاصمة بعث سيد البكري من يخبر الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة بوصولهما، فطلب منه أن يرسل له اسمه واسم أسلافه فكتب سيد البكري ما طلب منه، وبعد تحقيق ما كتبه سيد البكري وتأكد الشيخ سعيد بن إبراهيم من نسب سيد البكري خرج إليه فرحا مسرورا ومنشداً بيتين من الشعر جاء فيهما:

لو تعلم الدار من قد جاءها فرحت واستبشرت ثم باست موضع القدم

وأنشأت بلسان الحال قائلة أهلا وسهلا بأهل الجود والكرم

وسأله يوماً شيخه هل أعجبك طعام الجزائر، فأجابه ببيت من الشعر قال فيه:

أكلنا طعاماً طيباً عند طيب كذاك طعام الطيبين يطيب

بقي سيد البكري عند شيخه سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري يغترف من علمه إلى غاية وفاة شيخه سنة 1066هـ/1655م.(البكري(درة الأقلام)، د.س، صفحة 52)(البكري(الكواكب)، د.س، صفحة 33).

6.5 رحلة محمد بن أبي بكر الزجلاوي(كان حيا سنة 1016هـ/1607م) إلى حاضرة غريس: هو أحد أعلام وصلحاء زاوية زاجلو بتوات، جاء في آخر ورقة من شرحه لمنظومته المسماة: "السر المغتبط في المخمس خالي الوسط" بأنه أنهى كتابة منظومته بمدينة غريس(معسكر) في منطقة أنريز، ويذكر فيها بأنه خرج من توات لطلب

العلم سنة 1006هـ/1597م، إذ ظل لمدة سبع سنين بفاس ثم انتقل بعد ذلك لمدينة غريس أين ظل بها مدة سنتين طالبا للعلم، رجع بعدها إلى مسقط رأسه بزاجلو من حاضرة توات(الزجلاوي، د.س، صفحة 6).

7.5 الشيخ محمد بن دين الله التيطافي: أخذ العلم عن الشيخ محمد بوكليخة التلمساني، ومن تلامذته بتوات الشيخ أبي الأنوار التنلاني، توفي بقصر تيطاف سنة 1118هـ/1706م.(جعفري، 2009، صفحة 174).

8.5 رحلة الشيخ أمحمد العالم الزجلاوي إلى تلمسان(كان حيا سنة 1174هـ/1760م)[9]: غادر الزجلاوي توات صغيراً، باحثا عن موطن للعلم يملأ الفراغ الذي أحس به، فكانت وجهته الأولى حاضرة درعة(تمكروت) بالمغرب الأقصى، حيث درس على يد أحمد بن ناصر الدرعي، ثم انتقل إلى تافيلالت والتي مكث فيها طويلا، وانتقل بعد ذلك إلى تلمسان وجلس عند الشيخ محمد بوكلخ، ثم الجيلالي بن أحميد المزغراني المستغانمي وهو آخر شيوخه.

أثناء دراسته بتلمسان صادف وجوده حملة الباشا محمد بكداش لفتح مدينة وهران الأول سنة 1708م، وكان شاهد عيان ومشاركاً في هذا الفتح، واصفا مشاركة الطلبة والعلماء، والإمدادات التي وصلت من دار السلطان وتشكيلة الجيش الجزائري، وعنها يقول:"أما الجهاد ففي حضوره لمحاصرة جند المسلمين من الترك والطلبة مدينة وهران مدة عامين، ففتحها الله عليهم، في يوم الجمعة من عام ثمانية عشر ومائة وألف، قال: والطلبة الذين حضروها أكثر من خمسمائة، وأمدهم أهل الجزائر بعشرة آلاف تركي، ويهاب الكفار الطلبة أكثر من الترك، لإيثارهم الموت على الحياة، رغبة في الشهادة"(الزجلوي، 2010-2011، صفحة 508).

ويذكر في نوازله بأنه رابط في ثغر مهدية بالقرب من فاس مدة عامين، ومما ورد عن ذلك في النوازل" ففي مشارطته في ثغر مهدية من أحواز فاس مدة عامين، وقال له بعض ما ورد عليه من الفقهاء: إنما يصلح فضل الرباط لمثلك، ممن لا أهل له بها ولا ولد" (الزجلوي، 2010-2011، الصفحات 507-509).

ومن النوادر التي جاء على ذكرها عن تجار تلمسان وطلبتها "أن بعض تجار تلمسان عمل وليمة، ونادى الطلبة إليها، فتأسف بعضهم حين رأى حيطان داره مزينة باللباس، فقال: هؤلاء يُلبسون الحيطان، ونحن نتوسد الحجارة، فرد عليه غيره بقوله: احمدوا الله فالذي أعطاكم خيرا مما أعطاهم، هؤلاء لا يعرفون حتى فرائض الوضوء". وجاء على ذكر نطق أهل تلمسان من العوام وعدم التفريق في النطق بين الضاد والظاء، غير أن فقيه تلمسان وصالحها الحاج محمد الموفق[10] كان يميز بينهما في قراءته تميزا لطيفا. (الزجلوي، 2010-2011، الصفحات 487-491).

9.5 رحلة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنلاني إلى ثغر الجزائر: يعد من أعلام الرحلة في توات، نظراً لرحلاته العلمية والحجازية التي قادته إلى المغرب الأقصى والحرمين الشريفين، ومن بين رحلاته المدونة والمحققة رحلته إلى

ثغر الجزائر سنة 1816م. ولا تذكر المخطوطة سبب الرحلة إلا أنه يمكن وضعها ضمن الرحلات العلمية الاستكشافية، وذلك لما حوته من معلومات اجتماعية وتاريخية للمدن الجزائرية التي مر بها التنلاني.

انطلقت الرحلة من زاوية تنلان بحاضرة توات يوم الاثنين 30جوان 1816 وبلغ عمر الرحلة سبعة وتسعون يوما، وصفاً خلالها المدن والشعوب والأحداث التي عاصرها ونذكر منها (شترة، 2015، الصفحات 14–49):

– وصفه لحاضرة قورارة وعاصمتها تيميمون.

– ذكره لمدينة القليعة وحاضرة متليلي مع مدحه لأهلها.

– وصفه للحرب الدائرة بين الشعانبة وبني ميزاب.

– محاوراته مع علماء بني ميزاب، مع ذكر رأيه في عقيدة الإباضية، وكان ممن حاورهم من علماء بني ميزاب الحاج إبراهيم بن بحمان الغرواء، والشيخ باعمور، كما طالع مؤلفاتهم وخزائنهم وأشار إلى أهم كتبهم الفقهية ومنها: المسمي بـ" القسطاس"، والذي شبهه بما هو متداول عند المالكية من الكتب كمختصر خليل، ورسالة أبي زيد القيروان.

– وصفه للإقليم التيطري(المدية) وانبهاره بمدينة البليدة من حيث طبيعتها.

– ذكر وصوله إلى مدينة الجزائر والتقائه بالفقيه الحسن بن مصطفى الجزائري (بن قاضي مالكية الجزائر) الذي لم يكن يفارقه.

– وصفه لنزول الحملة الانجليزية الهولندية على مدينة الجزائر بقياد اللورد أكسموث يوم 26 أوت 1816، واصفا هذه الحملة بالتفصيل من حيث عدد السفن وعتادها وقدراتها، اعتمادا على معلومات دقيقة استقها من مصادر مقربة كالقاضي المالكي.

– ذكره لتهديم الجامع الأعظم للمالكية والجامع الجديد للحنفية وضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي.

تكتسي هذه الرحلة إلى ثغر الجزائر أهمية بالغة كونها المصدر العربي الوحيد الأكثر وثوقاً في تسجيل وقائع حملة أكسموث على الجزائر، ثم كون المؤلف كان شاهدا على تفاصيلها وأحداثها، مقربا من دوائر الإدارة مما مكنه من تدوين إحصائيات ومعلومات دقيقة حول الحملة.

6. الإجازة والتدريس:

1.6 إجازة أحمد المقري التلمساني للشيخ عبد الكريم بن أمحمد التمنطيطي: أجاز الشيخ أحمد المقري التلمساني "عالم توات" عبد الكريم بن أمحمد في علم الحديث، ومما جاء في نص الإجازة "وبعد فلا خفاء أن العلم أصل ما تحلى به من تكلم وخصوصا علم الحديث... وكان من جملة من سلك هذا الطريق وانتمى إلى خير فريق الفقيه

الفاضل الأريب الشيخ محمد عبد الكريم بن محمد التواتي"، وتحمل هذه الإجازة تاريخ 1041هـ/1631م (البكري(الكواكب)، د.س، صفحة 20).

2.6 الشيخ محمد بن عبد الكريم بن أمحمد التمنطيطي(كان حيا سنة 1059هـ/1649م): ما تذكره المصادر التي اطلعت عليها هي القصة التي جمعته بالرحالة المغربي العياشي سنة 1059هـ/1649م، حيث يعتبر أول من لقيه من الفقهاء بمدينة تقرت، وجرت بينهما محاورات في الفقه والنحو، فكان يجيب التمنطيطي أحسن جواب، وكان كلما أجاب عن مسألة يقول له: أحسنت يا ابن عالم توات، فلا يخرج من النحل إلا العسل، ومما ورد في كتاب الرحلة العياشية في ذكر حاضرة تقرت: "وأول من لقينا من طلبتها سيدي محمد بن عبد الكريم التواتي وَلَدُ عالم توات...ثم خرج ولده هذا بعدما تفقه وبقي بواركلا أعواما، ثم انتقل منها إلى تقرت، وهو رجل دمث الأخلاق طيب الأعراق، وقد شدا طرفا من الفقه والنحو، وله بعض الخبرة بعلم العَرُوض... وقرأ عليّ سيدي محمد بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الاشبيلي في ألقاب الحديث". (البكري(الكواكب)، د.س، صفحة 21) (العياشي، 2006، صفحة 120).

3.6 الشيخ محمد الصالح بن سيد البكري (ت1139هـ/1727م): هو الابن الأكبر للشيخ سيد البكري بن عبد الكريم، ولد بتمنطيط، وبها تعلم على يد والده سيد البكري، وبعد تفقهه انتقل في حياة والده إلى حاضرة تقرت للتدريس بها، وبها أسس مجلساً علمياً، واختص بتدريس كتاب الإحياء للإمام الغزالي في إحدى جوامع البلدة، وتذكر المصادر البكرية أن الشيخ تعرض أثناء تدريسه بهذا الجامع إلى مضايقات من حاكم البلدة الذي حاول أن يمنعه من التدريس ونشر العلم، فدعا عليه الشيخ محمد الصالح بقوله: "اللهم إنه تسبب في إماتة العلم فأرنا فيه فضلك" فقتل ذلك الحاكم في يومه، وتعد هذه الحادثة من الكرامات التي تميز بها الشيخ في حياته، وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ومن النوازل التي أفتى فيها هي اختلاف أهل عصره في الجنب يجد المصحف في المزبلة هل يخلصه قبل التيمم؟ أو يتيمم قبل إخراجه؟ وهنا وقع الاختلاف، فأفتى الشيخ بوجوب إخراجه قبل التيمم، لأن تركه اختياراً ردة. (البكري(الكواكب)، د.س، صفحة 47) (بكراوي، د.س، صفحة 71).

7- انتقال المصنفات الفقهية: شكلت المصنفات رافداً من روافد التواصل العلمي بين حاضرة توات والحواضر الجزائرية؛ غير أن آليات معرفة انتقال المصنفات التواتية يعوزنا في الوقت الحاضر، فأن مصنفات علماء الجزائر بتوات يمكن أن نحددها اعتمادا على ثلاثة وثائق هامة هي: وثيقة بيع مخطوطات خزانة زاوية سيد البكري سنة1300هـ/1883م، والوثيقة الثانية هي: رسم حبس كتب خزانة سيد الحاج بملوكة سنة 1229هـ/1814م،

والثالثة: فهرسة مخطوطات خزانة سيد الحاج البلبالي بملوكة، ومن جملة مصنفات علماء الجزائر بالخزائن التواتية نذكر:

- المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي المالكي.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) عبد الرحمن الثعالبي الجزائري.
- شرح على السلم المرونق في المنطق سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري .
- شرح السنوسية الكبرى محمد بن يوسف السنوسي.
- شرح السنوسي، لامية الجزولي في التوحيد.
- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، الونشريسي.
- الجوهر المكنون، عبد الرحمن الأخضري
- مناقب سيدي عبد القادر بن أبي سماحة.
- شرح واسطة السلوك، محمد بن يوسف السنوسي.
- عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان شرح الوغليسية، أبو محمد عبد الكريم بن علي الزواوي.
- نظم فصول قواعد التوحيد، أحمد بن عبد الله الجزائري.
- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، أحمد بن يحيى الونشريسي.
- العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة، عبد الرحمن الثعالبي.
- منظومة القدسية في التصوف، عبد الرحمن الأخضري.
- الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، عبد الرحمن الأخضري.
- التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير، عبد الرحمن بن عبد القادر التلمساني.
- نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير محمد بن يوسف السنوسي.
- كما وضع محمد بن أمحمد الزجلاوي شرحاً على القصيدة التلمسانية في الفرائض لأبي اسحاق التلمساني.

8. الزوايا :

- **زاوية سيد البكري بتقرت:** حسب المصادر البكرية فإن سيد البكري بن عبد الكريم التمنطيطي أسس في أثناء رحلته إلى الحج زاوية بتونس لا يعرف منها إلا اسمها (الزاوية البكرية) وزاوية أخرى بمدينة تقرت المسماة منها

جنان السبخة وجنان تغدوين وأجنة القواري، ويذكر فرج محمود فرج زاوية أخرى لسيد البكري بأريحا في الشام غير أننا لم نجد ما يثبت ذلك فيما اطلعت عليه، ومما يجب ذكره في هذا الباب أن سيد البكري كان ميسوراً ذا مال وأملاك وغنم في البادية، وله جنات وديار ما بين تيمي وتمنطيط وزاجلو وبوعلي، سهلت له شراء الأملاك وتحبيسها في سبيل الله. (البكري(الكواكب)، د.س، صفحة 27) (فرج، 1977، صفحة 86).

9. الخاتمة: شكلت توات عبر تاريخها الطويل جسراً للتواصل العلمي بين الحواضر المختلفة داخل الجزائر وخارجها، وقد امتدت هذه الجسور قبل القرن 15م واستمرت بعده، وفي ظل انفتاح الحاضرة التواتية على مختلف الحواضر الجزائر، فقد احتضنت توات بفعل أهميتها الاقتصادية وبعدها عن مناطق الاضطرابات العديد من علماء الجزائر شكلوا اللبنة الأولى في تبوأ توات مكانة علمية، ثم جاء بعد ذلك عهد أبناء توات لشد الرحال من أجل طلب العلم في الحواضر الجزائرية كتلمسان والجزائر العاصمة وغريس وبني عباس وغيرها من المدن الأخرى، وقد انعكس هذا التواصل على المصنفات العلمية لعلماء الجزائر، التي مثلت عنوانا أخر للتواصل وأيضا لوحدة الفكر والمذهب الديني. ويمكننا من خلال الدراسة أن نجمل أهم النتائج في الآتي:

- وجود تواصلا علميا بين توات والحواضر الجزائر، من خلال تنقل العلماء والفقهاء بين الجانبين.
- تسجل لنا العديد من فهارس المخطوطات ووثائق التحبيس والبيع أسماء مصنفات علماء الجزائر، التي كانت محل تباحث داخل الزوايا والمدارس بتوات.
- مثلت البيوتات العلمية التواتية همزة وصل بين توات وغيرها من الحواضر، كالبيت البكري، والتتلاني... .
- بَلَغَ علماء توات مرتبة علمية مكنتهم من الجلوس للتدريس والإفتاء في حواضر جزائرية أخرى.

10. قائمة المراجع:

– ابن بابا حيدة، محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم، (1977)، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

– بعثمان، عبد الرحمن، (2015–2016)، "القضاء في منطقة توات خلال القرنين 18/17م"، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف الدكتور محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران1، الجزائر.

– بكراوي، محمد العالم، الدرة البهية في الشجرة البكرية، خزانة محمد العالم، المنيعة، الجزائر،

– البكري، البكري بن عبد الكريم بن سيد البكري، إعلام الإخوان بأخبار بعض السادة الأعيان، مخطوط خزانة أولاد القاضي البكرية، تمنطيط، أدرار، الجزائر.

– البكري، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق، الكواكب البرية في المناقب البكرية، خزانة أولاد القاضي.

– البكري، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق، تقييد حول تاريخ توات وتمنطيط، خزانة أولاد القاضي، تمنطيط، أدرار، الجزائر.

– البكري، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق، جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، خزانة أولاد القاضي البكرية،تمنطيط، أدرار، الجزائر.

– البكري، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، خزانة أولاد القاضي البكرية،تمنطيط، أدرار، الجزائر.

– البوعبداللي، المهدي، (2011)، "أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات"، مجلة النخلة، ع7، مجموعة القروط،،سبتمبر 2011، أدرار ، الجزائر.

– التنبكتي، أحمد بابا،(1989)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جزآن، إشراف وتق عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

– جعفري، مبارك، (2009)، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر.

– الحمدي، أحمد، (1999–2000)، "محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية في توات، عصره وآثاره"، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، وهران، الجزائر.

– الزجلوي، أمحمد العالم، (2010–2011)، "توازل الزجلوي"، أطروحة دكتوراه، تح محمد جرادي، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الاسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

– الزجلوي، محمد بن أبي بكر، السر الغتبط في المخمس خالي الوسط، مخطوط، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر.

– العياشي، أبي سالم، (2006)، ماء الموائد (رحلة العياشي) 1661 – 1663 م، تح وتق، سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة.

– سعد الله، أبو القاسم، (2007)، تاريخ الجزائر الثقافي 1500– 1830، ج1، دار البصائر، الجزائر.

– فرج، محمود فرج، (1977)، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

– القادري، محمد بن الطيب، (1996)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني(موسوعة أعلام المغرب)، تح محمد حجي واحمد توفيق، ط1 دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان.

– ابن القاضي، أحمد ابن محمد المكناسي، (1970)، درة الحجال في أسماء الرجال، ج3، تح محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، مصر.

– قدوري، عبد المجيد، (1991)، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الاصليت الخريت، منشورات عكاظ الرباط، المغرب.

– قزان، زهير، (2010–2011)، "حاضرة توات المالكية أعلامها، نوازلها، خصائصها" مذكرة ماجستير، إشراف د، محمد حوتية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، أدرار، الجزائر.

– نويهض، عادل، (1980)، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،ط2، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان.

–الونشريسي، أحمد بن يحي، (1981)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج 2 ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية.

– Martin, A,G,P, (1908) , Oasis Sahariennes, Gourara-Touat-Tidikelt, Edition de l’imprimerie algérienne, Alger.